Coptology

رسالة عيد تجسد الكلمة

"والكلمة صار جسداً وسكن بيننا"

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠١٧

www.coptology.org

رسالة عيد تجسد الكلمة ٢٠١٧

"والكلمة صار جسداً وسكن بيننا"

عيدٌ سعيدٌ، رغم الأحزان، وفرحٌ في وسط دموع كل أسرة مصرية فقدت عزيزاً عليها في نيران أحقاد وكراهية الإرهاب الدموي الذي -دون أي سببٍ معقول- نزع حياة مصريين ومصريات في الكنائس وسيناء والقاهرة والإسكندرية، وأماكن أخرى من بلادنا الآمنة. ليسكب ربُّ السماء والأرض تعزيةً وسلاماً من فوق في كل القلوب الجريحة.

الكلمة المتجسد:

عندما تقدِّم التوراة قصة الخلق بالكلمة، دخلت الكلمةُ في كل شيء، في الحياة الإنسانية. ولا نستطيع أن نتكلم أو نعبِّر أو نتواصل بدون كلماتنا، فقد صارت الحياة الإنسانية، الوعاء الإنساني الذي تُولد وتحيا فيه كلماتنا. من كياننا الإنساني: العقل والإرادة والخيال والعواطف وكل ما يوصف بأنه إنساني تُولد الكلمات، وتخرج من الفم إلى آذان وعقول الغير لكي تخلق التواصل. تحمل الكلمة لمسة الكلمة Logos أي القدرات المتنوعة على: الخلق بالفكر الجديد، وعلى الاستنارة بطرد الأفكار السقيمة، وتنشر المحبة والفهم وتصبح غذاء الحكمة والإدراك. ولكن الشر أصاب الكلمة، فصارت رسولَ الخصام خالقةَ العداوة؛ لأنها تستطيع -أي الكلمات- العبث المدمر لا بمشاعر الفرد الواحد فقط، بل الجماهير أيضاً. فقد امتزج الحق بالباطل، واختلط الزور والبهتان والكذب بما هو خير وصواب وعادل. وامتص الموتُ القدرةَ على النطق، حيث تولد كل كلمة، فولدت كلمات: النهاية، والعدم، والفناء. وصارت قوةُ الموت والتدمير لاصقة بالنطق، فصار للكلمة قدرة الهدم، بل والموت. عندما قالت الجارية لبطرس الرسول أثناء محاكمة الرب: "لهجتك تظهرك"، فقد كان

ينطق الآرامية بشكلٍ مختلف. كانت الجارية تعبِّر عن مسيرة الكلمة الطويلة جداً في التاريخ الإنساني، صار النطقُ والحديث، أو كما درج القدماء على تسميته بـ"اللسان"، هو بمثابة تحديد لهوية الانتماء، ولكل ملامح الشخصية الإنسانية؛ لذلك جاء الكلمة Logos لكي يفدي كلماتنا من الزيف والكذب، مِن أن تصبح رسول الضلال. قبل الكلمة Logos كانت المحبة الإلهية والإنسانية تسير في طرقٍ عدة، طريق الغواية، وتعظيم محاسن الجسد، واصطياد السذج بالكلام المعسول الذي لا يعبِّر عن حقيقة. فقد أمسك فساد الإنسان بأشرف ما لديه، وهو المحبة، وأغلق عليها باب الكذب، وسلَّم مفتاح الزنزانة لمعسول الكلام، فصار للمحبة ضحايا سقطوا فريسة الإغراء؛ لأن الكذب تكلَّم باسم المحبة، وعجز السذج عن التمييز بين مَن يحب ومَن يستعبِد، وبين مَن يقول الحق، ومَن يدهن كلامه بكلماتٍ عن المحبة لكي يخفي الفخ المنصوب للضحية.

وفي عالم الكلام حيث يغلب الحديث على كل شيء، الكل يريد الكلام ولو كان كلاماً بلا غاية وبلا مضمون، بل مملوء بالكذب. دخلت الأسفار المقدسة، وصارت تقدَّم أحياناً بواسطة أنبياء كذبة، ومرات بواسطة معلمي الحق، وتعذَّر على القراء التمييز، وامتلأت رفوف المكتبات بكتبٍ كُتِبت لنشر فوضى عقلية تهدف إلى محاربة كل ما هو حق وصالح.

لذلك جاء الكلمة Logos **وتجسَّد لكي لا تكون المحبةُ خطاباً، بل حياةً، ولكي لا تصبح الكلمةُ نطقاً يمكن أن يُستَخدم بغير الحق.** تجسد الكلمة Logos لكي تصبح المحبة حياةً تُوهَب للآخرين، وتغفر حتى للأعداء وتصنع السلام.

تجسَّد لكي لا يبقى الله أسيراً للخطاب التقوي مهما كان يخلع على الله ما شاء من ألقابٍ وصفات هي إبداعُ العقل، وقدرةُ النطق، وحسب ميول قائلها أو كاتبها، كوصف الله بالقسوة ولذة الانتقام من الإنسان، وأن يصف الله بما شاء ما عدا المحبة.

"**تجسَّد الكلمة لكي يصبح جسده كلمةً**"، وهذه أضعف ترجمة لعبارة أستاذنا أثناسيوس الرسولي (ضد الأريوسيين ٣: ٣٣) لأن λογωθεισης της σαρκς فالفقرة كلها عن نقل أصل الإنسان من آدم الأول إلى آدم الأخير، وعن قبول الرب لكل ضعفات الجسد لكي يلاشيها الرب عندما يخلقنا من جديد، فلا نعود ترابيين "لأن الجسد لن يبقى بعد ترابياً، بل تألَّه (بقوة) اللوغوس لأن الله الكلمة صار جسداً" (٣: ٣٣).

كيف صار الجسدُ كلمةً، أو بعد أن نُقِل من الأصل الترابي إلى الأصل السمائي الجديد؛ لأن λογω من اللوغوس Logos و Θεισης من Theos وهنا القيامة ختمت الإنسانية بختم الخلود وميراث الملكوت الأبدي.

الكلمة المتجسد سكن بيننا:

حرفياً εσκηνωσεν أي نصب خيمته، وحرفياً أيضاً εν ημιν لأن الخيمة نُصبت بين البشر، فهو بيننا، وحتى إذا قلنا: "فينا"، فالتعريب لا يقف عند الكلمات؛ لأن التجسد جاء "بحضورٍ متجسد لله الكلمة"، وهو التعبير الوارد عند أثناسيوس الرسولي في (تجسد الكلمة ٨: ٢ – الرد على الأريوسيين ٢: ٥٥ – ٢: ٦٦) هو حضور متجسد أبدي جعله "رأس" الجسد الواحد الكنيسة.

فقد صار تجسد الابن هو الهيكل الأبدي الذي أقام الكنيسة لتكون هيكلاً له. وسكنى الابن بيننا أعلنت بشارة الإنجيل.

الكلمة صار جسداً:

الحضور المتجسد لله الكلمة هو حضورُ مَن "أخلى ذاته". ولم يتوقف إخلاء الذات بعد صعود الرب بالجسد، لأن يسوع بكل يقين مُجِّد، وجلس عن يمين الآب، ولكن ظل إخلاء الذات هو حركة المحبة التي لم تتبدد؛ لأن المحبة هي إخلاءٌ للذات.

كان الأب بولجاكوف في ثلاثيته عن الحمل والباركليت والعروس، هو مَن أشار إلى أن إخلاء الذات هو حركة حياة ومحبة في الثالوث؛ لأن الآب أخلى ذاته بإرسال الابن ليعلِن عنه، والابنُ أخلى ذاته وأرسل المعزِّي لكي يعلنه، والمعزِّي أخلى ذاته لكي تعلنه الكنيسة. وإخلاء الذات هو ما نراه في تقديم الرب لحياته لنا في القداسات؛ لأن مَن يقول لنا: "خذوا كلوا .. خذوا اشربوا. هذا هو جسدي .. هذا هو دمي"، هو مَن لم يجعل إرادته تحت حكم الزمان، أي زمان الاستعلان، لكي تتغير هذه الإرادة وترتد إلى الاحتفاظ بالحياة؛ لأن هذا يمكن أن يحدث لنا، ولكنه لا يمكن أن يحدث للرب بسبب ثبات محبته. وحتى تصدر دراسة عن شرح إنجيل يوحنا للقديس كيرلس الكبير، فاننا في الفقرة التي يشرح فيها (يوحنا ١٧: ٤-٥)، نجد المسيح يخاطبنا كإنسان وكمثال τυπος وبدء αρχη وأيقونة εικων والأهم هو أنه أعلن لنا "كيف نحيا"؛ لأن الرب يسوع هو الوسيط الذي فيه استُعلِن كل ما يخص الله وكل ما يخص الإنسان، إذ صار هو "الحدود المشتركة بين الله والإنسانية". وتعبير "الحدود المشتركة" ورد في شرح ليوحنا (١٠: ١٥) للقديس كيرلس: "لأنه على نحو فريد ωκειωτα على علاقة بالآب، والآب على نحو فريد على علاقة به بسبب وحدة (الطبيعة الإلهية)، وهكذا نحن على علاقة به؛ لأنه تأنس وصار إنساناً لأجلنا، وبواسطته كوسيط عُدنا إلى الآب، فصار المسيحُ كما لو كان الحدود المشتركة μεθοριον ωσπερτι (راجع لامب عمود ٨٣٩ حيث يرد التعبير عند أوريجينوس والنيسي أيضاً). وترجمة الكلمة μεθοριον إلى "الحد المشترك" أكثر دقة لأنها تشرح لنا الحضور المتجسد.

صار تجسده هو الحدُّ المشترك بيننا وبين الثالوث، وليس الابن فقط، أو الروح القدس. وصار حضوره المتجسد هو الرأس أو الأصل الذي منه كل الأعضاء تنمو "نمواً من الله" (كولوسي ٢: ١٩)؛ لأن "فيه سُرَّ أن يحل كل ملء اللاهوت جسدياً" (كولوسي ١: ١٩ مع ٢: ٩) لكي "نمتلئ نحن فيه" (كولوسي ٢: ١٠).

وكرأسِ وبداية الخلقة الجديدة "يجمع ولا يفرق"، يجمع كل المذابح في إرادة العطاء الأزلي السابقة على خلق العالم (أفسس ١: ٣)؛ لكي "يوزِّع". والحضور

المتجسد هو الذي يجعلنا نقول -كما لو كان بصيغة الغائب؛ لأن خادم السر الكنسي ليس هو مؤسِّس السر، بل خادمه: "أخذ خبزاً .. وقال .."، إشارةً إلى حضوره الإلهي المتجسد.

تصويب الوعي:

علينا أن نعود دائماً إلى ثلاثة حقائق مُستعلَنة في تجسد الله الكلمة:

الأولى: اتحاد اللاهوت بالناسوت، فهو ينبوع كل العطايا الإلهية؛ لأن الرب لم يأت لكي يجدد النفوس فقط، بل الأجساد أيضاً. وما حدث لجسده بسبب اتحاده بلاهوت الرب، يُوهَب لنا. وأول ما يُوهَب لنا هو عودتنا إلى أصلٍ سمائيٍّ إلهيٍّ، فهو الذي جعل الرب يختار أن يُحبل به بدون زواج؛ لكي ينتهي الإنتماء الآدمي الأول، وننال الانتماء إلى آدم الثاني "كما في آدم يموت الجميع هكذا في المسيح سيُحيا الجميع" (١كو ١٥: ٢١-٢٢)، فقد صارت الحياة حرةً من الانتماء البيولوجي الذي لا زلنا نحاول التمسك به، بل ونفرضه على الآخرين، تاركين التعليم الرسولي الذي أخذ الحبل البتولي كأساسٍ للجديد: "لأنكم جميعاً أبناء الله بالإيمان في المسيح يسوع. ليس يهودي ولا أممي. ليس عبدٌ ولا حُرٌّ. ليس ذَكَرٌ ولا أنثى لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع" (غلا ٣: ٢٦-٢٨).

الثانية: لقد صرنا جسد المسيح الواحد غالب الانقسام. وكل انقسام تم في التاريخ تجاهَلَ هذه الحقيقة الإلهية الواضحة. والوحدة التي نعنيها هنا سببها أن ما هو في المتجسد، أصبح فينا جميعاً، أي الحياة الجديدة التي جدَّدها يسوع، وهي حياته هو التي تُوهَب لنا في السرائر وفي الكلمة بالروح القدس. وهي ليست مجموعة أفكار تدرس في اللاهوت النظري Systematic بل حياة، حياة الأقنوم أو الشخص. وكل محاولة تمَّت في التاريخ للفصل بين المسيح وبين أعضاء جسده، كانت تعبِّر عن تحدي محبة وتواضع الله، وعجزٍ عن فهم بشارة الإنجيل: "في ملء الزمان أرسل الله ابنه مولوداً

من امرأة .. ليفدي الذين تحت الشريعة" (غلا ٤: ٤-٦).

الثالثة: جاء التجسد باتحادٍ لا انفصال فيه. وعندما يمسك الكاهن بالتقدمة في الصينية بعد التقديس ليقول إنه يعترف إلى النفس الأخير أن "لاهوته لم يفارق ناسوته لحظة واحدة ولا طرفة عين"؛ لأنه جعل ذلك الاتحاد "واحداً بغير انفصال ولا اختلاف ولا تغيير"، فهو وإن كان يعترف بما هو حق في رأس الجسد، فهو يعبِّر أيضاً بشكلٍ مباشرٍ أن هذا هو ذات اتحاد الرأس بالأعضاء؛ لأن تقديم الذبيحة "جسد ودم عمانوئيل إلهنا هذا هو بالحقيقة آمين"، هو تقديم الحياة الغالبة كل انفصال، وكل تحوُّلٍ إلى ما هو قديم.

الأخوة والأخوات الأحباء...

لنحب بعضناً كما أحبنا يسوع؛ لأن المحبة هي رباط الكمال. لنحب أجسادنا لأن الكلمة صار جسداً، ونحتفل بعيد تجديد الإنسانية، لا بميلاد طفلٍ، بل بتواضع الله الكلمة وتنازله ليكون "بيننا".

تهنئة لقداسة البابا تواضروس الذي يقود مسيرة عودتنا إلى تراثنا، وإلى الآباء المطارنة والأساقفة الأرثوذكسيين، والآباء القساوسة وكل شعب أُم الشهداء كنيستنا القبطية الأرثوذكسية. سائلين الله أن يأتي هذا العيد علينا وعلى مصر بالسلام والرخاء.

د. جورج حبيب بباوي